الباب الثالث

الحروب الصليبية:

الصراع بين الشرق والغرب

- تباين المواقف من خلال الصراع ضد الإسلام.
- بقعة تلوث الثوب الأوروبي.
- تحفظ الألمان على حمىّ الحروب الصليبية.
- سيد عظيم يغذ السير نحو الأراضي المقدسة.
- هل كانت حروب آل شتاوفن حملات صليبية؟
- صديق العرب.

obeikandi.com

obeikandl.com

تباين المواقف من خلال
الصراع ضد الإسلام

على الرغم من أن تطور الفروسية الذي حدث استناداً إلى التطورات الاجتماعية في دول أوروبا خلال عصور القيصر أوتو وعصر الساليين، قد تم تدريجياً، فإنه بعد المعارك التي جرت بشكل متواصل على الجهات الإسبانية والإيطالية، فإن الحروب الصليبية بما اشتملت عليه من معارك مشتركة ضد العدو المشترك، وما نتج عن ذلك بالضرورة من صلات وثيقة على كافة المستويات في الأراضي المقدسة، كانت هي التي بلورت الفروسية الأوروبية حتى مع وجود اختلافات كبيرة على المستوى الوطني في كل دولة، وكما سنرى فيما بعد، لذلك أسهمت تلك الحروب في تهذيب أنماط حياة الفروسية عن طريق النموذج المشترك للفارس، الذي تجاوز هنا الصورة التقليدية للمحاربين، الذين وصفتهم أناشيد "رولاند" والذي وجدَ بشكل جديد.

ولكن هل يصدق حقاً ذلك القول عما يسمى بالحرب المشتركة التي خاضها الغرب؟

سوف نجد على الفور أن هناك تناقضاً لا يمكن أن تخطئه العين، أصبح يتسع بين طوائف الفرسان الألمان وفرسان المعبد وفرسان يوحنا، ويشير ذلك التناقض إلى وجود اختلافات تاريخية وقومية عميقة الجذور، تتمثل في اختلاف النظرة تجاه الحملة الصليبية ومقاتلة "الكفار". كذلك يبدو أن تلك الاختلافات تركت بصماتها في وقت مبكر على ذلك الارتباط القوي الذي قام بين الفروسية الفرنسية وبين البابا والكنيسة من ناحية، وبين الفروسية الألمانية وبين القيصر والإمبراطورية

من ناحية ثانية، وبالمقابل فإن طوائف فرسان المعبد وفرسان يوحنا التي قامت على أسس فرنسية كانت تلتزم بطاعة البابا وحده، ولهذا السبب فإن تعصبها كان يصل إلى حد الكراهية، كما تميزت بقسوة عمياء لا ترحم، ليس فقط فيما يتعلق بمحاربة "الكفار[1]" المسلمين، وإنما أيضاً في مواجهة كل ذي سلطة سواء كان ملك القدس، أو ملك فرنسا، أو القيصر نفسه، أو طوائف الفرسان "الشقيقة" الأخرى. ولذلك نشأت عداوة عنيفة بين هذه الطوائف بعضها مع بعض، وفيما يتعلق بالتحلي بمسوح الفاقة، فكانت قاصرة على الفرد نفسه، وليس على الطائفة ككل، فقد كانت الطائفة تحصل على امتيازات باباوية ضخمة، كما كانت الهبات تنهال عليها، وأدى جشعها ونهمها إلى السلطة إلى أن يتوجه جل تفكيرها إلى مصلحتها الخاصة، ولذلك أصبحت تمتلك قدراً هائلاً من الأراضي والأموال، وكان من شأن ذلك الوضع أن يصبح فخاً مرعباً لفرسان المعبد، ويؤدي من ثم إلى انحسار الطائفة وسقوطها بعنف، بواسطة أحد الملوك الفرنسيين الأقوياء، الذي استطاع أن يؤثر على أحد الباباوات الضعاف، وبعد انتهاء الحروب الصليبية أقامت طائفة يوحنا قواعد جديدة لها في رودس ومالطة، وقد نشأت طائفة يوحنا الألمانية المعاصرة استناداً إلى الميراث البروتستانتي الذي خلفته تلك الطائفة.

وكانت طوائف الفرسان الألمانية ذات وضع مختلف تماماً، فلقد كوّنها الألمان وكانت تقتصر على منطقة اللغة الألمانية فقط، ولكن ما هو السبب في ذلك؟ لقد رفض أنصار يوحنا استقبال الفرسان الألمان الجرحى في مستشفاهم حين وصلت فلول الصليبيين إلى فلسطين براً وبحراً، بعد أن مات إمبراطورهم فريدريك بارباروسا الأول فجأة، وكانت رحى المعركة تدور على أشدها، وقد كانت تلك

(١) لفظ «الكفار» كان يطلقه النصارى المتعصبون على المسلمين، وهذا غير صحيح ولكن الصحيح أنهم هم الكفار.

أكثر إنهاكاً وخسائر حول حصن عكا، إلا أن شكوك اليوحانيين تجاه القادمين الجدد، هؤلاء الفرسان الذين اندفعوا للقتال، يضاف إليها العداء الوطني الذي تغذيه كراهية البابا للإمبراطورية الألمانية عموماً، ولأسرة هوهنشتاوفن الحاكمة بشكل خاص، كانت أقوى من مشاعر الود ومحبة الجار، وهنا نشط تجار مدينتي ليبيك وبريمن فانطلقوا بحراً من ميناء بريمن في أسطول صغير وقاموا بنقل فرسان الشمال الألماني متخذين مساراً يدور حول إسبانيا برمتها، ومجتازين البحر المتوسط وعندما وصلوا قريباً من عكا سحبوا سفنهم إلى الشاطئ، وأقاموا بينها مستشفى من الخيام للفرسان الألمان الذين سقطوا جرحى أو مرضى بالأوبئة، واستخدموا في ذلك أشرعة سفنهم وما وجدوه فوق الشاطئ.

وبعد سقوط حصن عكا وجه ابن باربا روسا، فريدريك فون شڤابن، اهتمامه إلى الحصول على قطعة أرض في عكا لكي يقيم عليها مستشفى ثابتاً أسماه " الدار الألمانية " وقد دفن هو أيضاً هناك.

وحين بدأ أخوه هاينريش السادس بعدها بعدة سنوات في تجهيز نفسه لقيادة حملته الصليبية - الأمر الذي كان يعني أن سياسة الإمبراطورية بدأت تهتم ولأول مرّة بالأراضي المقدسة - فإن خطته كانت تشمل أيضاً تلك القاعدة الألمانية هناك، ومن هنا كانت نشأة طائفة الفرسان الألمانية عام ١١٩٨م على أساس جمعية الفرسان التي تعنى بالفرسان والتي أقامها قيصر أسرة هوهنشتاوفن، وقد اعتمدها البابا في العام التالي وكان هذا يعني أن الهدف الذي أنشئت من أجله الطائفة قد تحدد بالفعل: أي العمل في خدمة الإمبراطورية بصفة أساسية، ولكن قامت الطائفة بعد ذلك بوقت قصير بناء على نداء ملك المجر دوق مازوفيا، بنقل مجال عملها الرئيسي من فلسطين إلى الحدود الشرقية للإمبراطورية. وكانت نُقَط

الخلاف بين الطائفة الألمانية وطائفة المعبد واليوحانيين هي نفسها نقاط الالتقاء بينها وبين روابط المقاتلين المسلمين على الحدود؛ ذلك أنه نتيجة للرابطة الداخلية القوية بين بيت آل شتاوفن الحاكم والتي أكدتها الصداقة القوية بين المعلم الأول الشهير للطائفة هرمان فون سالزا وبين فريدريك الثاني الذي كان صديقه ومستشاره وموضع ثقته - أخذت الطائفة تمارس واجباتها بصورة مستقلة اعتماداً على حصونها التي أقامتها في كل مكان على غرار النمط الرئيسي للقلاع الإسلامية، - وتذكرنا قلعة ومدينة تورن الألمانية بحصن طورون الفلسطيني - تلك المهمة المتمثلة في قيامهم- أي أعضاء الرابطة- بصفتهم من أصحاب الإقطاعيات في الإمبراطورية "بفتح" أراضي الإمبراطورية ناحية الشرق من أجل استعادة الأراضي الجرمانية القديمة، وقد أصبح قادة الرابطة أمراء في الإمبراطورية لأنهم كانوا يتولون إدارة شؤون الطوائف التي أصبحت تتكون منها البلاد.

وقد قامت تلك الطوائف بعمليات استصلاح وصرف للمياه وإقامة سدود رائعة مكنتهم من توسيع رقعة البلاد لتضم ٩٦ مدينة جديدة و ١٤٠٠ قرية على ساحل البلطيق ممتدة حتى جزر ليفلاند، كذلك تمكنت دولة الطوائف عن طريق الاقتصاد الضرائبي المنظم، وطبقة الموظفين ذات التنظيم المتين، والجيش ذي الإعداد الجيد، والجاهز للعمل في كل وقت، وكذا عن طريق نظام للمعلومات يعمل بصورة ممتازة، وهي الأمور التي تعلم المرء كيف يعجب بها في الشرق هي وكثير من التفاصيل المتعلقة بالإدارة وأساليب بناء القلاع، تمكنت هذه الدولة لقرنين قادمين من الزمان - وباستثناء صقلية الواقعة تحت حكم آل شتاوفن - من أن تصبح أكثر الدول تقدماً، وأفضلها إدارة وأقواها دفاعاً داخل الإمبراطورية، وفوق ذلك فقد كانت هي البذرة التي أنبتت بروسيا فيما بعد.

بقعة تلوث الثوب الأوروبي

كانت طبيعة الحروب الصليبية تحمل التناقضات نفسها بين طائفة الفرسان ذات الأصل الفرنسي وطوائف الفرسان الألمانية وهي التناقضات التي ظهرت بعدها بمئة عام، وهي الحروب التي خاضتها البابوية مع من يقودون الإمبراطورية الألمانية، فقد كانت وما زالت فرنسا دائماً هي البلد الذي انطلقت منها الحركة الصليبية، ولكن لماذا فرنسا بالذات؟ وما هو تأثير بلد المنشأ على تلك الحركة في الحقيقة؟ وما هي الشرارة التي أشعلت الحماس طوال مئات السنين؟ ذلك الحماس الذي فجر المواجهة العنيفة مع الإسلام؟.

لقد كانت بذرة الإصلاح الكنسي في فرنسا تكمن في دير كلوني، ذلك الذي تمثل في إعلان أن السلطة الدينية هي الوحيدة التي تحمل لواء الربوبية، وأن كل ما له صلة بالدنيا الأرضية هباء، بما في ذلك الملك الذي كان - وفقاً للتقاليد الجرمانية القديمة - صاحب قداسة، وهذا يعني أن أي قسم بالولاء تجاه أي سلطة دنيوية يصبح الآن عديم الجدوى؛ لأن كنيسة المسيح هي التي يعقد لها وحدها لواء القيادة المسيحية، وبعد أن كان البابا يبتهل لطلب المساعدة على أيام "شارلمان العظيم" و"بيبن" لكي تقوم الملوك بحماية الكنيسة، فقد قام الأب المقدس الآن بتكليف الفرسان بتلك المهمة متجاوزاً الملك الفرنسي الضعيف وأصحاب الإقطاعيات. وهكذا دخل الفرسان في خدمة الكنيسة وأصبحوا في نظرها جنود المسيح.

وبذلك فإن البابا جريجور السابع، الذي أصبح الآن أقوى الباباوات، عمل انطلاقاً من إدراكه لسلطته الجديدة على إخضاع القيصر هينريك الرابع وإذلاله

أشد الإذلال ولم يتورع في سبيل بسط سيطرته من جديد على كنيسة روما الشرقية التي انسلخت عن سلطة البابا، عن التفكير في الجمع بين منصب البابا وقائد الجيش لكي يزحف على رأس جيش من الفرسان ويقوم بنفسه بإخضاع الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى التي يتهددها السلاجقة، فلقد كان في وسعه أن يستند إلى فكرة تخليص البلاد من السلاجقة على أنها رغبة مقبولة للقيام بحملته، ولكن انقضت إحدى وعشرون سنة ولم تخرج هذه الخطة إلى حيز التنفيذ.

كانت بيزنطة قد التقطت أنفاسها منذ وقت طويل، وبدأت من جانبها تتأهب لاستعادة آسيا الصغرى، ولكنها كانت بحاجة إلى معونات حربية، وهنا تلقف البابا أوروبان الثاني - ذو الأصل الفرنسي- المشروع الذي بدأه سلفه وأعلن في كليرمونت بأوفران أمام نبلاء فرنسا وفرسانها عن حملته الصليبية من أجل مساعدة الأشقاء المسيحيين الذي زعم أنهم مهددون، ولم تبلغ حالتهم مثل ذلك الحد من الشقاء كما هو حادث الآن، ووعدهم بالخلاص من آثامهم ومنحهم الجزاء الأبدي مقابل تحرير الأماكن المقدسة من "نير الكفار الأشرار" - حسب قوله- والذين لم يسببوا ضرراً لأي كائن في حقيقة الأمر، وهكذا نجد أن كلاً من روما وبيزنطة قد أخفيتا خططهما الحقيقية في حين أعلنتا مبادئ دعائية تهدف إلى حشد قدر كاف من الأتباع لتأييد أهدافهما؛ فعلى حين يطالب هذا الجانب بتقديم العون لمواجهة الخطر المميت- في رأيهم - من جانب السلاجقة، نجد أن الجانب الآخر يدعو إلى إنقاذ قبر المسيح الذي وقع في الأيدي العربية التي دنّسته.

ولقد كان من جرّاء الروح الكنسية التي تقسم الإنسانية إلى قسمين، مسيحيين وكفّار، أن نتج عنها عواقب وخيمة باستباحة حرمات هؤلاء الآخرين وسفك دمائهم دونما وازع أو يقظة ضمير.

أثمرت تلك الروح ثماراً ضارة؛ وذلك لأن التعصب العقائدي الذي يثيره مثل ذلك التعسف الذي زاد من حدته المقاومة العنيفة غير المنتظرة التي واجهتها الجيوش الصليبية في زحفها خلال أوروبا وآسيا الصغرى، الذي كان عادة ما يستغرق السنين الطويلة، ثم وصل ذلك التعصب إلى ذروته نتيجة للمشقة والجوع، وحرارة الجو والعقبات التي لم تخطر على بال، وظهر هذا في أفعال مريعة مهولة، ولهذا السبب فإننا لا نشعر بالدهشة لكون تلك الحروب الصليبية التي أخذت بداية فظيعة نتيجة لحمامات الدم البشعة التي قام بها الأوروبيون الغربيون، وبصفة خاصة الفرنسيون وجيوشهم الصليبية (باسم الرب)، تلك الجيوش التي كان العرب يطلقون عليهم اسم «الفرنجة» وقد اقتحمت هذه الجيوش القدس يوم ١٥ يولية ١٠٩٩ بصورة دموية، لا تشعر بالدهشة لكون تلك الحروب الصليبية ما زالت تمثل في الوعي العربي بقعة تلوث الثوب الأوروبي لا يمكن إزالتها.

ولقد تدفقت مشاعر الألم التي سببها ذلك الشقاء على أيدي الغزاة معبرة عن نفسها في أبيات مظفر الله الوردي وتحولت على يديه إلى دعوة للجهاد والحرب المقدسة والتي يجب أن يخوضها العرب:

انسابت دماؤنا غزيرة لتمتزج بدموعنا
فلم يعد منا من هو قادر على دحر العدو الذي يهددنا
إن من يذرف الدمع يشعر بالأسى تجاه قعقعة السلاح
بينما تحرق الحرب كل شيء بسيوفها البراقة
يالهذه الدماء التي تدفقت

والنساء العزل إلا من ضفحة أيديهن
يحفظن بها الحياء
وتضرجت نصال السيوف اللامعة باللون القاني
كما غطت الدماء سنان الرماح الذهبية
وبين طعنات الرماح والسيوف تصبح جباه
الأطفال بيضاء من الخوف الشديد
إنها حرب مرعبة تجعل من نجوا من أهوالها
ويأملون في البقاء يصرون على أسنانهم غضباً وحزناً
إنها حرب كالسيف الذي يرتعش في أيدي الكفار
يقطع الرقاب والرؤوس كالنصل الحاد

obeikandl.com

تحفّظ الألمان على حمّى الحروب الصليبية

لم تتوهج الشرارة التي انطلقت من كلير مونت في ألمانيا بل على العكس قوبلت الدعوة الفائقة الحماس بالرفض ولم تجد الدعوة إلى "الأعمال الصالحة" التي تتمثل في قتال الكفار لتحقيق خلاص النفس وغفران الخطايا كما ذكر البابا، لم تجد لها هناك أرضاً خصبة، ولم يجد الناس سوى السخرية يواجهون بها من يتوجهون إلى الحروب الصليبية ناعتين إياهم بالحمقى وعملهم بالحمق.

ولا شك أن الخلاف بين القيصر والبابا كان له دوره في هذا الشأن.. ألم يكن جريجور السابع هو الذي أرسل قبل وقت قصير إلى القيصر وأساقفته لاعناً إياهم؟ بل ألم يتحمس في الدعوة إلى تجهيز حملة صليبية ضد القيصر وضد المملكة؟ وفوق ذلك فإن الادعاء الظالم من جانب "ممثل الرب على الأرض" كان السبب في خلخلة دعائم الإمبراطورية والقضاء على نظامها وأمنها الداخلي وأدى إلى "أن يلف الظلام أركان الأرض جميعاً" حسب ما جاء على لسان أوتو فون فرايزنج، وأدى ذلك أيضاً إلى إلحاق أشد الضرر بمكانة الأب المقدس في روما لدى الشعب البسيط في ألمانيا، كذلك جرؤ المجلس الكنسي للمملكة في فورمس على إعلان أن صاحب الكرسي المقدس ليس جديراً بالمنصب الرفيع..!

ولم تكن الإمبراطورية الألمانية تهتم بقضية الحروب الصليبية التي أصابت فرنسا بشكل خاص، بحالة انتشاء سرعان ما أصابت عدواها كل أوروبا الغربية فارضة عليها ذلك الانفعال الديني الذي كان يصعب السيطرة عليه، بل إن الإمبراطورية الألمانية ظلت طوال خمسين عاماً الدولة الكبرى الوحيدة التي لم يجرفها ذلك التيار العام. حتى عندما كانت شرارة التعصب المذهبي التي استخدمت كافة أساليب الدعاية الجماهيرية لنشرها قد نفذت إلى بعض أجزاء

الإمبراطورية، إلا أنها لم تشملها برّمتها، وذلك لأن الألمان كانو منشغلين بالقبائل الجرمانية الشرقية الوثنية على الجانب الآخر من نهري إلبة وفايكسل حتى يستطيعوا هدايتهم، كما كانوا مهتمين بتعمير ونشر التقدم في بلادهم التي توسعت نتيجة لهجراتهم، ولذلك لم يهتموا كثيراً بمقاتلة المسلمين في أقاصي الأرض، واقتصر الأمر على بعض الحجاج أو الفرسان الصليبيين الذين كانوا ينضمون إلى الأسراب الضخمة الشبيهة بالجراد التي تضمها القوافل الفرنسية والإنجليزية المتجهة إلى هناك.

وأدى ذلك التحفظ الألماني في المشاركة في الحرب الصليبية الأولى إلى أن اعتبره الفرنسيون بداية إساءة تحولت إلى شعور بالريبة والاحتقار تجاههم.

وكانت فرنسا تشعر أنها حاملة لواء المسيح وطليعة جيشه وزعيمته وأن العالم يدين لها: لأنها أنقذته من الإسلام بينما كان الألمان قابعين في سلام في وطنهم، وهذا ما عبر عنه جويبير فون نوجينت في بداية القرن الثاني عشر، الذي ألف كتاب "فرنسا تنفذ أوامر الرب".

بل إن خطب القديس بيرنهارد فون كليرفو الحماسية حول الحروب الصليبية التي ألقاها عام ١١٤٦م لم تستطع إلهاب الحماس في ألمانيا، فما بالك بإشعال نيران جامحة كتلك التي شهدتها فيزلاي في مقاطعة بورجوند، ولكن بدء عمليات اضطهاد اليهود بواسطة دعاة الحروب الصليبية من أنصار راهب رابطة "إلسيسترزين" كانت مبرراً لذهابه إلى فرانكفورت ليحاول إقناع ملك ألمانيا، إلا أن ذلك الراهب الذي تعود على النجاح تلقى رفضاً قاطعاً من الملك كونراد الثالث، ولكن الجولة التي قام بها في جنوب غرب ألمانيا أحيت آمال الشعب الذي أضنته المجاعة، والقحط، ويتوق للخلاص بقوة لكي يحصل على الثروات

والجزاء الحسن في القدس الجديدة. ولم تفلح المحاولة الثانية التي قام بها ذلك الخطيب المفوه في البرلمان بمدينة شباير؛ لحمل الملك كونراد على رفع راية الصليب إلا أن ذلك الداعية إلى المسيح لم يثنه شيء هذه المرة عن عزمه في الإيقاع بضحيته فكان عليه أن يبذل قصارى جهده مع ذلك الملك الألماني العنيد، فاندفع في محاولته الثالثة إلى الملك موجهاً إليه تحذيراً شخصياً متخذاً مسوح المسيح ذاته في شكله وحديثه شاحذاً كافة مواهبه في الإقناع، وصاح فيه بصوت الرب الجليل:

" أيها الرجل.. ماذا كان في وسعي القيام به لك أكثر من ذلك ولم أفعله؟ "

وأخيراً أصدر تنهيدة ارتياح تدل على نجاحه في مهمته: "إنها معجزة المعجزات! " وهكذا استطاع أن يستميل الملك الألماني، وفي الحال استخدم بيرنهارد كل مالديه من نفوذ على طائفة السيسترزين لكي يبقي على قوة الدفع قائمة في ألمانيا، ولكن ذلك لم يتفق مطلقاً مع حسابات البابا الذي كان يعتبر الحروب الصليبية من شأن فرنسا وحدها - وهو ما اتضح الآن- وأراد الاحتفاظ لملكها لويس السابع بالقيادة عليها، في حين أنه كان يفكر في استخدام الألمان لمساعدته في مشاكله التي كان يعاني منها في إيطاليا.

بيد أنّ مشاعر التشكك والرفض كانت تمتزج على الرغم من ذلك مع الإحساس المتنامي بأهمية الحروب الصليبية، فقد تحدث مؤلف دوريات فيرتزبرج عن "قدوم عدد من مدعي النبوة أو من يدعون بدعوة المسيح الدجال وحاولوا تضليل الناس مستخدمين عبارات بالية"، وكان من نتيجة ذلك فيما قاله: "لقد عم الهوس الناس الذين أخذوا يرمون بأنفسهم في خضم أخطار نفسية وجسمية بعيدة الأثر، وكاد ذلك الهوس يؤدي بهم إلى هلاك شامل!.

رافق الطالع السيئ حملة الملك كونراد منذ بدايتها، وتناقلت الألسن روايات عن وجود محاولات شيطانية من جانب "أتباع الشيطان" الذين استخدموا أساليبهم الملتوية في إقناع الملك بتوجيه حملته إلى القدس، كذلك رفض أمراء شمال ألمانيا أمام الريشتساج (البرلمان) القتال ضد الكفار في تلك الأراضي النائية، في حين أن القتال ضد الكفار على الجانب الآخر من الحدود قضية واجبة، وعلى حين كان هؤلاء المعارضون يوجهون حملتهم الخاصة نحو الشرق الألماني، فإن جيش الملك المتجه إلى الشرق عبر الإمبراطورية البيزنطية والذي كان يزداد عدده باستمرار نتيجة لانضمام الحجاج والنساء والأتباع إليه، كاد يفنى تماماً خلال ذلك الطريق المحفوف بالأخطار بسبب تعرضه لكوارث الفيضانات والسهام المميتة التي أمطره بها السلاجقة، وعاد جزء كبير ممن بقوا على قيد الحياة إلى ألمانيا في حين حاولت القلة الباقية مواصلة طريقها إلى الأراضي المقدسة، وقد نجح البعض في ذلك بعد مشقة مستخدمين طريق البر، كما نجح البعض الآخر الذي سافر بحراً مع الملك، ولكن هؤلاء جميعاً بقوا هناك أربعة أشهر فقط قام خلالها كونراد بحصار دمشق مدة ثلاثة أيام فحسب، ذلك الحصار الذي انتهى سريعاً بسبب التناقضات الوطنية بين المسيحيين، وبسبب الخيانة، وحين رفع الملك بعدها مباشرة مرساته للرحيل مرة أخرى كان عزاؤه الوحيد أنه قد صلى عند قبر المسيح بالقدس.

سيد عظيم يغذ السير نحو الأراضي المقدسة

كان " هاينريش ديس لويفين " أقوى رجل في المملكة بجانب القيصر فريدريك الأول، ولا يمكن تصنيف حملته " الصليبية " الخاصة (عام ١١٧٢م) بأنها كانت حملة صليبية حقيقية ولا حتى رحلة من أجل الحج، لأن مثل ذلك الرجل العظيم الواثق بنفسه والذي ضم إلى المملكة مناطق شاسعة شرق نهر الإلبة مع منطقة ميكلنبورج واستحق من ثم لقب دوق ساكسونيا وباڤاريا، لم تكن طبيعته لتتواءم مع مظهر الحاج التقي الورع، ولا مع طبيعة المناضل من أجل العقيدة، فما بالك بأن يكون متأثراً بعقدة معاداة المسلمين! .

كذلك تميزت حملته عن كل ما عداها بأنه تمكن من العودة إلى وطنه بعد فترة قصيرة مع جيشه المؤلف من ألفي رجل ليس فقط دون إراقة دماء أو أن يصيبهم سوء - إلا إذا كان بسبب المناخ أو الأمراض- ولكنه رجع في بداية عام ١١٧٣م بجيش أكبر من الذي ذهب به قبل أقل من عام وحدث ذلك على الصورة الآتية:

لم تكن محاربة المسلمين في الحقيقة هي الشغل الشاغل لذلك الرجل، كما أن ذلك لم يكن راجعاً - كما يدعي البعض- إلى أنه لم تتح له فرصة القتال بالقرب من طبرية عند بحيرة الناصرة، بل إن ملك القدس وقيصر بيزنطة استقبلا ذلك الدوق الساكسوني استقبال السادة العظام، وبهذه الصفة جاس خلال البلاد وزار الأماكن المقدسة ووهبها الثمين من العطايا وأمر بتزيينها بأضواء تنير دوماً، وكذا بحليات من الفضة وزينات ثمينة أخرى، كذلك قام بتزويد فرسان المعبد وفرسان

يوحنا بالأسلحة والعطايا المالية الضخمة، وحتى يؤمن رحلته خلال العودة بيسر وسهولة فإنه أرسل رسله مقدماً إلى أمير قلقيلية، وهو من الأرمن المسيحيين وكان يشتهر بمكائده وعدوانيته.

وفوجئ بأن هناك جيشاً من خمس مئة فارس ينتظرونه في طرسوس، عبارة عن رسل مدينة قونية وكانت مهمتهم هي استقبال الدوق الألماني وجيشه أثناء عبوره "قلقيلية" حتى يصل في أمان إلى حيث يقيم السلاجقة، وفي قونية اقتيد الدوق على الفور إلى السلطان، ويمكننا أن نقول إن الاستقبال الذي أعده القائد المسلم كان يزدري بكافة الدعايات الغربية البشعة، بل إنه فاق إلى حد بعيد ما كان يتوقعه الدوق القادم الذي كان يعتريه بعض القلق، استقبل السلطان الدوق هنريك في أبهة تخلب الألباب، ولا يرجع ذلك فحسب إلى أنه يستقبل ضيفاً عزيزاً، وإنما لأنه أراد أن يتقدم إلى الدوق ببادرة ودية طيبة، إلا أن المفاجأة عقدت لسان الدوق حين أخبره السلطان أنه يمت إليه بصلة الدم، ذلك أن سيدة ألمانية فاضلة كانت قد تزوجت جده ومن ثم فإن الدم الألماني يجري في عروقه.

وكانت مثل تلك الزيجات قد تمت بالفعل بين أميرات الصليبيين والأمراء العرب، كما حدث مع الكونتيسة النمساوية إيدا التي شاركت في حملة أسقف سالزبورج وأصبحت أماً لزنكي[1] الذي كان عدواً للمسيحيين، ويقال في رواية أخرى إنها أم صلاح الدين، كما أن تاريخ الإمبراطورية يورد أنباء مشابهة عن أميرة باڤاريا "آجنيس".

وهكذا أيقظت زيارة الضيف الألماني الكبير لدى السلطان كافة مشاعر الفروسية لدى الضيف، وزيادة في تكريم ضيفه فإنه وهب جميع أسراه من

(١) هو عماد الدين زنكي عم صلاح الدين.

المسيحيين حريتهم ولم يكن عددهم بالقليل ! .

وهكذا عـاد هؤلاء الأسـرى مع جـيش الدوق إلى القـسطنطينيـة وإلى أوروبا حيث ذهب كل منهم إلى موطنه، كذلك حمَّل السلطان ضيفه بهدايا قيمة تشمل الكثير من الأزياء الفاخرة المصنوعة من الحرير البراق والمرصعة بالأحجار الكريمة واللآلئ، كما منحه فهدين من فهود الصيد المستأنسة، وقد تم سك عملة معدنية تحمل صورة هنريك مع الفهدين .

وكـان تمثال الأسد الذي كان مذهباً، وقد أقامه الدوق هنريك -قبل ست سنوات من حملته الصليبية- كرمز لعدالته ولإرادة السيطرة والحكم لديه قد ألهب خيال شعبه، وقد وضعه في ساحة قلعته "دانكفرداروده" بإمارته الواقعة على الحدود والتي مُنحت لآل فيلفن، ذلك أن الوثائق والأوراق التاريخية اللاتينية قد اعتادت من قرون ترجمة اسم الجنس "الفلفن" أي أنثى الحيوان الضاري بكلمة "ليو" أي الأسد، ولذلك فإن أسرته، أبوه وهنريك نفسه كانوا يحملون شعار الأسد كرمز تقليدي فوق عملاتهم وأختامهم، ولذلك غير هنريك التسمية القديمة واستبدلها بالشعار الذي جاء من الشرق واستقر منذ منتصف القرن الثاني عشر .

أما اسمه الآخر "الأسد" فإنه ارتبط بعد وفاته بدوق سكسونيا مأخوذاً عن الأسطورة التي نسجت خيوطها حول ذلك الأمر غير العادي على الإطلاق في ذلك الحين، أي إقامة نصب تذكاري لأحد الحيوانات، فهل في وسعنا أن نجد تفسيراً لذلك في مكان آخر سوى في الشرق؟ إذ كيف وصل ذلك الأسد إلى براونشفايج ليحظى بمثل ذلك التقدير؟ لقد انتشرت أسطورة هنريك في مجموعة كاملة من الملاحم وأشعار الفروسية وأهازيج هانزساكس ومن خلال الأغاني الشعبية، بل وأيضاً ظهرت في إحدى الأعمال الأوبرالية، وقد اتخذت تلك

الحكاية شكلين بصفة أساسية: أحدهما تقول إن هنريك تغلب في معركة شخصية جرت في الشرق على أحد الأمراء العرب ولكنه عفا عنه بشهامة الفرسان فكان أن أهداه الأمير العربي أسده المستأنس تعبيراً عن امتنانه.

أما الرواية الأخرى فتقول: إن هايزيش قد أنقذ حياة الأسد في الصحراء حيث قام بقتل التنين الذي كان يهاجمه، مما حدا بالأسد إلى أن يسير وراء منقذه أينما ذهب وحيثما أقام، كما ساعده في مواجهة كافة الأخطار والمآزق، ولكن الروايتين تتفقان في أن الأسد بعد وفاة سيده رقد فوق قبره حتى مات هو الآخر مما حدا بأرملة الدوق إلى إحياء ذكرى رفيق زوجها المخلص القادم من الشرق عن طريق ذلك النصب التذكاري المعدني، وفي الحقيقة، فإن مجلس مدنية براونشفايج التي اتخذت الأسد كذلك شعاراً لها احتفظت لوقت طويل بأسد حقيقي داخل "برج الأسد" عند بوابة لاوبن بكولين ماركت، وهو البرج الذي تهدم عام ١٥٤٤ .

هل كانت حروب آل شتاوفن حملات صليبية؟

بدأت الحروب الصليبية تتحول بالتدريج إلى أداة في أيدي البابوية تستخدمها ضد الإمبراطورية وضد النظام القيصري الألماني الذي كان ينافس راعي الكنيسة المسيحية بادعائه القداسة كما يفعل هو، وهو ادعاء له في الحقيقة جذور قديمة في المملكة الجرمانية وهو ما كان على كافة القياصرة الألمان منذ شارلمان العظيم الدفاع عنه ضد كبار رجال الكنيسة في روما، وقد استخدمت السلطة البابوية الحملات الصليبية في الوقت نفسه بهدف إضعاف وتدمير استقلال الإمبراطوية إلى الحد الذي جعل باباوات روما يستخدمون الضرائب التي فرضوها من أجل الحملات الصليبية في محاربة أسرة هوهنشتاوفن، بل لقد وصل الأمر إلى حد مطالبتهم بتجريد حملة صليبية ضد القيصر والإمبراطورية الألمانية، ولذلك فإنه حين اتخذ آل هوهنشتاوفن قرارهم بالمشاركة في الحروب الصليبية فإنهم كانو يعمدون إلى مواجهة الباباوية ونزع السلاح السياسي الذي اتخذته لمواجهة الإمبراطورية وتسخيرهم لخدمتهم هم.

ولهذا السبب فإن تلك الحملة الصليبية التي لم يدعُ إليها البابا ولا الكنيسة، ولكن دعا إليها القيصر وقادها بنفسه، لم تكن لتلقى ترحيباً أو قبولاً من جانب البابا؛ لأن ذلك تجاوز ما كان يهدف إليه البابا من وراء الضغط الذي مارسه على القيصر، لأن تلك المبادرة من جانب القيصر كانت بمثابة قلب لأوضاع وموازين القوى؛ ولذلك فإنه خلال حكم فريدريك الثاني لم تجد الكنيسة أمامها سوى أن

تطرده من رحمتها لكي تحول دون خروج تلك الحملة الصليبية أو بمعنى أدق حملة آل شتاوفن. وهكذا فإن الحملات الصليبية الثلاثة التي قامت بها الأسرة الحاكمة لم تنجم عن الحماس الديني ولا بدافع الرغبة في تدمير الكفار أو هدايتهم " وفقاً لما جاء في أيدولوجية بيرنهارد فون كليرفو التي كانت ملزمة للحملات البابوية، ولا التكبر المسيحي إزاء العقوبة. والذي كان من شأنه إعطاء المبرر للانضمام إلى الحروب الصليبية، كما لم تكن حملات آل شتاوفن تتسم بعداء ديني صريح للإسلام وهو المبرر الذي استندت إليه الحملات الباباوية التي جاءت فيما بعد وغيرت بذلك من المفهوم الأساسي للحروب الصليبية، ولذلك فإنه من المؤكد أن القتال ضد الكفار لم يكن هو هدف حملات آل شتاوفن الصليبية (كانت تلك التسمية صحيحة لتلك الحملات، وكان ذلك هو نفس ما يميزها عن غيرها من الحملات التي قام بها فرسان أوروبا الغربية وملوكها).

وعلى هذا الأساس فقد كانت لدى الإمبراطورية دوافع وأهداف سياسية عليا (في المقام الأول): فالقيصر فريدريك الأول كان يسعى إلى دعم أركان الإمبراطورية وتأكيد مكانتها بصفتها قوة عظمى في مواجهة سلطة البابا التي كانت تزداد عداء للمملكة، أما ابنه هينريك السادس قيصر الصقليتين فكان يسعى إلى توسيع رقعة ملكه لتصبح واقعًا ينضوي تحت لوائه الكثير من الشعوب، وكان ذلك التأكيد على سلطة الإمبراطورية يجمع بين التقاليد النورماندية- الصقلية وتقاليد الإمبراطورية الرومانية. وهكذا تمكن هينريك السادس من منطلق سلطاته الإمبراطورية من بسط سلطانه على قبرص وأرمينيا اللتين طلبتا الانضواء تحت رايته فسار على رأس "حملته الصليبية" إليهما حيث توج ملكاً، وكانت تلك الحملة مجرد حركة شطرنج في إطار اللعبة العالمية التي كانت تهدف - في الأساس- إلى

إخضاع بيزنطة التي كانت مبررات سيطرته عليها أقوى من تلك المبررات بالنسبة إلى فلسطين مثلاً، وكانت تلك طريقة لبقة في إخراج البابا المبجل من اللعبة؛ مما جعل هينريك السادس يدعو الجيش إلى الانطلاق دون أن يحتاج إلى مساندة البابا له؛ لأن دعوته تلك لم تتحدث عن تحرير القدس ولا محاربة الكفار مما زاد الطين بلة في أعين البابا.

وكان مما يتعارض مع روح الحملات الصليبية كلها حسبما كان البابا أو بيرنهارد فون كليرفو يتمناها هو: أن فريدريك بارباوسا الأول كان يتبادل الرسائل الودية منذ وقت طويل مع السلطان صلاح الدين.

ففي عام ١١٧٣م أرسل صلاح الدين وفداً إلى فريدريك في أخن يحمل رسالة غريبة: أن يتزوج ابنه من ابنة القيصر ويتوج هو ملكاً مسيحياً، ولقد أبقى القيصر الرسل لمدة ستة أشهر في بلاطه وجعلهم يزورون عدة مدن في الإمبراطورية، وفي العام الذي تلاه أرسل فيتستهوم "Vitzthum" بوخارد من شتر أسبورج إلى صلاح الدين يحمل رسائل منه وكلفه ببعض المهام.

وذات يوم تأتي أنباء منذرة بالخطر من الأرض المقدسة، ذلك أن أكبر الكوارث التي حلت والمتمثلة في خسارة المعركة فوق مرتفعات الجولان عند حطين عام ١١٨٧ وفقدان الصليب المقدس وخسارة القدس التي أصابت الفرنجة المحتلين في مقتل، كان عمق هذه الكارثة مساوياً لعمق الشكوى التي عمّت الغرب مما جعل الدعوة إلى القيام بحملات جديدة أقوى من كل ما سبق حتى ذلك الحين وذلك بهدف الإسراع بمساعدة الفرنجة الذين خسروا مواقعهم في الشرق، وفي هذه المرة فقد أخذت الدعوة تتجه مباشرة إلى ملوك أوروبا على أمل تحقيق أكبر تأثير ممكن.

ومن الأمور التي ميزت ذلك الوضع بشكل أوضح هو فشل الجهود في تحقيق تأثير لدى الألمان، ومن ثم فقد تكرر ما نعرفه بالفعل عند الملك كونراد الثالث خال القيصر بشكل دقيق للغاية.

ذلك أن البابا مكيمينس الثالث يطالب القيصر فريدريك الأول أن يشتري صكوك الغفران وينال الحياة الأبدية بقتال الكفار لكي ينال الكنوز الكثيرة في السماء، ولكن دون جدوى. كذلك فإن تكرار المطالبة من جانب الرسول البابوي الكردينال هينريك فون ألبانو لم تستطع أن تدفع القيصر إلى حمل الصليب، وحتى المحاولة الثالثة للكردينال الذي استخدم في برلمان شتر اسبورج قدرته الخطابية الهائلة، لم تجد لدى القيصر آذاناً صاغية.

ولكن حين عزم فريدريك رغم ذلك بعدها بعام على أن يتحرك على رأس فرسانه إلى الشرق (بادئاً حملته) حيث استبعد هذه المرة بعناية كافة الأتباع والسائرين في ركابه، فإنه فعل ذلك بقرار ذاتي على مسؤوليته الخاصة مخاطراً بإغضاب البابا، كذلك لم يكن الحماس للصليب أو للروح الصليبية هو الذي يثير الحماس لدى جيشه المؤلف من ثلاثة آلاف فارس منظمين جيداً (بقدر ما يثيره) مرأى قيصرهم والولاء له ويدفعهم للسير وراءه.

ولكن قبل أن يبدأ القيصر حملته بعام كامل كان قد أجرى اتصالاً مع صلاح الدين في ٢٦ مايو ١١٨٨ فقد أخبره فريدريك في خطاب حمله الكونت هينريك فون دمتيز إلى السلطان في مصر، أخبره كما يفعل الفارس نحو زميله في المعركة وعلى طريقة الفرسان أنه يعلن عليه الحرب بل إنه حدد وفقاً للتقاليد القديمة مكان وموعد ذلك اللقاء، يوم أول نوفمبر ١١٨٩ في منطقة تسوان، كذلك كان يبدو أن الأمر يحمل الأسى حين كتب يقول له إنه مضطر الآن إلى مواجهته عسكرياً

وهو يمتلك ولايات كثيرة في آسيا وإفريقيا تعتبر تابعة له هو بصفته القيصر الروماني أو سليل القياصرة الرومان، كذلك فإنه طالب صلاح الدين بأن يعيد إليه مدينة القدس التي استولى عليها وإطلاق سراح الأسرى الفرنجة.

ولقد رد الحاكم العربي على "صديقه الصدوق، العظيم السامي فريدريك، ملك ألمانيا" دون تأخير وقد عرض عليه إطلاق سراح كافة الأسرى الفرنجة، بالإضافة إلى حرية المرور إلى القبر المقدس والممارسة الدائمة للشعائر الدينية المسيحية في كنيسة القبر، ولكنه عرض إعادة كافة القلاع التي كان يحتلها الفرنجة الغزاة، وهو ما لم يكن لفردريك حقاً سلطان عليه.

ولقد كانت تلك تنازلات عادلة، ولكننا لا نعرف طبيعة الإجابة التي أعطاها القيصر الفارس للسلطان في ميدان (تسوان)، وذلك لأنه لم يحافظ على موعد لقائه، بل لم يطأ الأرض المقدسة مطلقاً، ونحن نعرف السبب المأساوي لذلك، فقد غرق القيصر يوم ١٠ يونيه في الفيضان الجارف الجارف في "سالف "Saleph".

وربما يمكننا هنا أن نتحدث عن قيصر ألماني آخر قام بعدها بسبعة قرون بلفتة تكريم تتسم بشهامة الفروسية تجاه الفارس العظيم صلاح الدين فوق نفس المسرح الذي شهد الصراع بين الشعوب حينذاك[(١)] أقام قبراً كبيراً وأمر بأن تدثر عظامه في كفن من المرمر وأن يعلق فوقه قنديل يحمل بجانب اسم السلطان السابق، واسمه بصفته باني القبر "فليهلم الثاني من أسرة هوهينتسولرن" كذلك فإنه أقام للسكان العرب في القدس مستشفى تديره الراهبات المسيحيات لا يزال يعمل حتى اليوم.

(١) وذلك حين أقام في موضع قبره شبه المتهدم في دمشق والذي ضاعت معالمه بجانب المسجد الكبير مباشرة.

وكانت كارثة "سالف" قد أدت إلى أن يفقد جيش الفرسان بعد فقد قائده، حماسه ويصيبه الوهن نتيجة للأوبئة والمعارك، ومن ثم عاد الجزء الأكبر منه إلى الوطن، في حين أن البعض انتحر حزناً على القيصر، ووقع كثيرون في الأسر وعرضوا للبيع كعبيد في أسواق الشرق ووصلت شراذم منهم فقط إلى فلسطين، وهناك مهّد (جويدو فون لوريجنان) ملك القدس السابق الذي لا يحفظ عهده والذي أطلق صلاح الدين سراحه بعد أن هزمه بناء على كلمة شرف منه، مهّد لحصار عكا.

ولقد امتد ذلك الحصار لسنوات طويلة وكان جويدو يتلقى دوماً المساعدات من قوات النورمانديين والدانمركيين والإنجليز بزعامة ريتشارد قلب الأسد والفرنسيين تحت لواء الملك فيليب أغسطس.

وقد جاء إلى هنا أيضاً الكونت الألماني لودفيج فون تيرنجن ولكنه بعد أن قضى عدة أسابيع تعيسة تخللتها الخلافات بين الألمان والفرنسيين وتبادل الاتهامات بخصوص العلاقات بين الكونت والسلطان صلاح الدين، ونتيجة لمعاناته الشديدة من حمى الملاريا التي أصابته اضطر الكونت إلى بداية رحلة العودة إلى الوطن، ولكنه مات قبل أن يصل إلى قبرص.

والآن ماذا عن الشائعات التي تقول إن صلاح الدين قد سرب سراً إلى معسكر الكونت بعض البدو بغرض القيام بأعمال تخريبية؟ إن الصحيح هو أن صلاح الدين قد أرسل أحد أطبائه ومعه بعض الأدوية إلى ذلك المريض الألماني، وأرسل إليه أيضاً بعض ما يعيد إليه نشاطه، وهو نفس ما فعله مع ريتشارد قلب الأسد عندما مرض، كتصرف نبيل من فارس، ثم هل كانت الأكياس التي يقال إنها امتلأت ذهباً، وكذا الجمال الأربعة والصقور الأربعة والفهدان وهي الأشياء التي

يقال إنها صاحبت لودفيج عند رحيله، هل كانت هدية من السلطان تعبيراً عن صداقته له؟ أم ربما كانت هدايا مقدمة كرشوة؟ لقد كان ذلك في حقيقة الأمر اتهاماً كثيراً ما يستخدمه الفرنسيون عندما يتشدقون في أمر ما مثلما حدث قبلها مباشرة عندما احترق لهم برجان للحصار.. وبنفس القدر فإن ذلك يلقي ضوءاً واضحاً على العلاقة بين الفرنسيين والألمان وبين الألمان والعرب.

وأخيراً وصلت أيضاً بطريق البر مجموعة فرسان ابن القيصر فريدريك فون شفاين التي تناقصت نتيجة للخسائر الكبيرة بسبب الهجمات العربية، وقد زادت الأمراض من إنهاك تلك المجموعة حيث انتشرت خلالها الأوبئة الفظيعة نتيجة للحرمان الذي طال شهوراً رغم وجود فائض كبير من الطعام والشراب، ولأن اليوحانيين أو "الهوسبتال" قد رفضوا - كما ذكرنا - أن يستقبلوا الألمان لديهم فقد امتلأت بهم الأماكن الطارئة التي أقيمت بين سفن أهالي بريمن وتجار ليبيك والمقبرة الغربية من عكا، وحين مات أيضاً ابن بابا روسا، تفككت أوصال بقية الجيشين.

كذلك فقد أقام القيصر هينريك السادس علاقات صداقة مع الأمراء العرب، حين أدى الموت بقوة إلى إنهاء حملته الصليبية، كما أن مجموعة الفرسان الصليبيين والمغامرين الذين أبحروا قبل ذلك لم تجلب للألمان في الحقيقة سمعة طيبة.

أما الحفيد وهو القيصر فريدريك الثاني فون هوهنشتاوفن فإنه أجرى في مقر إقامته الصقلي في فوجيا مفاوضات مستفيضة مع الأمير المصري فخر الدين، مبعوث السلطان الكامل، وذلك بغرض مساعدة السلطان ضد شقيقه ومن أجل معاهدة سلمية بغرض التنازل عن الأماكن المقدسة.

صديق العرب

إن هناك القليل الذي يعرفه الألمان أنفسهم والذي يعرفه العالم العربي ؛ ذلك أنه عندما يدور الحديث عن الحروب الصليبية وتحديداً عن تلك الأعمال الشائنة التي لوثت بها المسيحية الغربية نفسها ، فإن الألمان هم أقل الأطراف الذين يشعرون بحمرة الخجل من جراء ذلك ، وذلك أن الأمر لم يقتصر فقط وخلال العصور المختلفة على عدم قيام الجيوش الألمانية بالاستيلاء على الدول العربية أو حتى على القدس بقوة السلاح ، ولا قيامها باحتلال الدول العربية أو استعمارها ، بل إن أحد القياصرة الألمان كان هو الذي ذهب إلى هناك وهو ينوي إقرار السلام في عصر يسوده العداء المذهبي المتعصب والحقد القاتل وذلك على الرغم من أن البابا استمر يضغط عليه طوال اثني عشر عاماً من أجل القضاء على الكفار أو هدايتهم .

وكانت الحملة الصليبية التي قادها فريدريك الثاني بنفسه إلى الأرض المقدسة ، باسم الإمبراطورية ، وأيضاً على غير رغبة البابا المتشدد جريجوروس التاسع الذي أمطره باللعنات ، ولم يكن حماسه المسيحي في عقاب المسلمين هو الذي يملأ عليه جوانحه ، ولكن السعي إلى تحقيق تسوية سلمية مع الخصم الذي يحترمه ويعجب به ، وسعيه إلى إقرار السلام وذلك تبعاً للمفاوضات التي أجراها مع الأمير فخر الدين في فوجيا والذي جعل منه صديقه ووسمه فارساً ، كذلك لم يكن الأمر متعلقاً بالحصول على الأرض ، ولكن فقط بالحصول على تاج القدس الذي استحقه لزواجه بروثين إيزابيلا لكي يضع الأماكن المقدسة من جديد تحت حمايته .

obeikandi.com

ولكن البابا كان هو الذي لا يريد السلام؛ فلقد أوضح بيرنهارد فون كليوفو في خطابه رقم (٤٥٧) أنه يجب أن لا تكون هناك أية مفاوضات مع العالم الإسلامي ولا أية تسوية أو حتى معاهدة، "طالما هذه الشعوب لا تزال كافرة" وأن هدف الحرب الصليبية هو "القتل أو التنصير"، وهذا يعتبر موقفاً يتعارض تماماً مع الموقف الإسلامي الذي اتسم بالشهامة والفروسية منذ البداية تجاه المسيحيين واليهود في المناطق التي يسيطر عليها الإسلام، كما كان يتعارض مع اتجاهات القيصر الفارس.

ولكن ذلك وحده لم يمنع البابا جريجور التاسع في أي حال من الأحوال من (أن يتحالف سراً مع عدو الكنيسة المذهبي نفسه) على الرغم من قدرته على الإضرار بالقيصر فريدريك الثاني على الدوام، ذلك أن كراهية الأب المقدس للقيصر الألماني صديق العرب كانت أكبر من هدفه الذي سعى إلى تحقيقه عن طريق الحركة الصليبية، أي تحرير القبر المقدس، وقد أعمت الكراهية قلب ذلك الراعي الأكبر للمسيحية وجعلته يندفع إلى إرسال رسالة موجهة لعدوه، السلطان الكافر، يحثه فيها على عدم تسليم الأماكن المقدسة للقيصر.

ولأن القيصر لم ينخدع سواء بالمعارضة الخفية من جانب رجال الدين السوريينولا من البارونات (النبلاء) الفرنسيين المقيمين هناك ولا من فرسان المعبد ذوي الموقف المعادي له ولا بواسطة عقوبات الكنيسة الصارمة المتمثلة في الطرد من الكنيسة أو إهدار دمه أو أن يُحل أتباع جريجور التاسع من قسم الولاء له، بعد أن عمد البابا إلى إرسال جنوده الرئيسيين الباباويين للهجوم على المملكة الصقلية التي غاب عنها حاكمها، ثم كان آخر عمل لإذلال القيصر هو أن الأب المقدس أعد- بالاشتراك مع زعيم طائفة المعبد واليوحانيين- لمحاولة اغتيال القيصر،

ولكن السلطان العربي نفسه كان هو الذي أنقذ قيصر آل شتاوفن؛ ذلك أن أعداءه لابد قد علموا بأن القيصر سوف يحج مع رفقة قليلة في وقت معين إلى المكان الذي عُمّد فيه المسيح على الضفة اليسرى لنهر الأردن، وعلم فرسان السلطان الكامل بذلك وأبلغوه لكي تتاح للسلطان فرصة الإمساك به هناك وقتله، إلا أن السلطان الذي شعر بالتقزز بسبب تلك الخيانة الوضيعة من جانب «فرسان الخليفة الروماني»، أرسل الخطاب المختوم بخاتم معلم طائفة المعبد إلى القيصر، وكما فعل من قبل خاله صلاح الدين، فإن السلطان الكامل عبّر عن فروسية وشهامة حقيقيتين حين أبلغ فريدريك، ذلك الكافر، بهذا الأمر وجعل من يتشدقون بالحفاظ على الأخوة المسيحية تندى جباههم خجلاً.